المحاضرة السادسة

حضارة الصين القديمة :

مهد النشأة:

في وديان الأنهار الثلاثة الرئيسية، وجدت اهم مراكز الحضارية الصينية، حيث وجدت بقايا الانسان القديم، و تعود الى نحو أربع مائة الف سنة، حيث كان يعيش على الصيد، ثم على الزراعة و الصيد،و ذكرت وكالة انباء الصين الجديدة، ان بعض الباحثين عثرو في شهر نيسان 1985 م ، على الشواطئ الصخرية بالمنطقة الواقعة بأقصى شمال الصين، على آلاف النقوش التي ترجع الى عصر يتراوح بين 6000 ق.م و 8000 ق,م ، تآكل بعضها ، في حين يوضح بعضها الآخر صورا لحيوانات و اشخاص، و مشاهد الصيد و المعارك، بالإضافة الى رموز مختلفة ،قامت بنحتها على الأحجار بعض القبائل الرُّحَّل .

السلالات التي أنشأت حضارة الصين

في عهد سلالة تشانغ (1122-2765 ق.م) ، التي حكمت في مقاطعة هونان في وادي النهر الأصفر، سارت الصين الى البرونز، ثم الى عصر الكتابة ، و عبد الصينيون في هذا الدور الأرواح المتعلقة بالقوى الطبيعية و عناصرها، كما عبدو الاسلاف ، فالصين موطن عبادة الاسلاف.

ثم غزا الصين من الغرب أقوام تحت زعامة قبيلة تشو ، استقرت في وادي النهر الأصفر ، مُتّخذة من هاو عاصمة لها، فاقتبسو حضارة الدّور السّابق، و حكمو ما بين 256 – 1122 ق.م و أعطو الحكم لرؤساء في المقاطعات ، و تأسس نوع من الحكم الاقطاعي ، وفي منتصف القرن الثالث قبل الميلاد، حصلت حروب كثيرة بين المقاطعات بغية السيطرة ، فنجحت مقاطعة تشين في توحيد البلاد ، و أعطت اسمها لبلاد الصين كلها .

اهتمام الصينيين بالتعليم

اعتقد الصينيون ان كتابتهم من اصل الهي ، وهي بلا ابجدية، فلكل كلمة او فكرة إشارة خاصة ، و يمكن للصيني ان يتدبر امره بثلاثة او أربعة الاف إشارة، و كانت الكتابة للاشراف فقط، و كان الموظفون يختارون على أساس امتحانات دقيقة ، و تعد في جملتها أجدر وسائل الاختيار الخدّام العموميين ..و كانت هذه الطريقة من الناحية النظرية توفق احسن التوفيق بين مبادئ الارستقراطية و الديموقراطية، فهي تمنح الناس جميعا فرصة متكافئة لاعداد انفسهم للمناصب العامة، لكنها لا تفتح أبواب المناصب الا لمن اعدّو انفسهم لها، ولقد انتجت خير النتائج من الوجهة العملية مدى ألف عام.

و كانت بداية الطريقة في مدارس القرى .. يقوم فيها معلم واحد بتعليم أبناء سراة القرية تعليما اوليا ، اما الفقراء من السكان فقد ضل أبناؤهم أميين، و كانت أوقات الدراسة طويلة، كما كان النظام صارما في هذه المدارس المتواضعة ، و كانت طريقة التعليم الحفظ عن ظهر قلب ، و كان الطفل يخرج من المدرسة بعلم قليل و ادراك كبير ، جاهلا بالحقائق ناضج العقل .

وكان في وسع الأطفال بعد ان يتمو الدراسة في هذه المدارس ، أن يلتحقو بكليات الدولة القليلة العدد، الفقيرة في أدواتها و استعداداتها ، و لكنهم كانو في اكثر الأحيان يتلقون العلم على مدرسين خصوصيين ، او يواصلون الدرس في منازلهم في عدد قليل من الكتب الثمينة .

و كان هذا التعليم هو الأساس التي قامت عليه الصين – في عهد أسرة هان على سبيل التجربة ، و في عهد أسرة تانج بصفة نهائية– نظام تولي المناصب العامة بالامتحان ، و من أقوال الصينيين في هذا : إنّ من أضر الأمور بالشعب أن يتعلم حكامه طرق الحكم بالحكم نفسه، و ان من واجبهم كلما استطاعو أن يتعلمو طرق الحكم قبل ان يحكمو... ، و من اجل هذا كانت تعقد في أوقات معينة امتحانات عامة في كل مركز من المراكز، يتقدم اليها كل من شاء من الذكور متى كانو في سن معينة .

و كان المتقدم الى الامتحان يمتحن في قوة تذكره، و فهمه لكتابات كنفوشيوس، و في مقدار ما يعرف من الشعر الصيني ، و من تاريخ الصين ،و في قدرته على ان يكتب أبحاثا في السياسة و الاخلاق كتابة تدل على الفهم و الذكاء ، و كان في وسع من يخفق في الامتحان أن يعيد الدرس ،

و يتقدم إليه مرة أخرى، و من نجح منح درجة شيوزداي التي تؤهله لان يكون عضوا في طبقة الادباء ، و لان يعين في المناصب الصغرى في الحكومة الإقليمية ، و أهم من هذا أن يكون من حقه ان يتقدم إما مباشرة ، أو بعد استعداد جديد لامتحان آخر يعقد في الأقاليم كل ثلاث سنوات ، شبيه الأول ، ولكنه أصعب منه، و من اخفق فيه جاز ان يتقدم له مرة أخرى ، و كان يفعل ذلك كثيرون من المتقدمين ، فكان يجتازه في بعض الأحيان رجال في الثمانين ، و ظلو طول حياتهم يدرسون ، و كثيرا ما مات الناس و هم يتأهبون لدخول هذه الامتحانات ، و كان الذين ينجحون يختارون للوظائف الحكومية الصغرى ، كما كان من حقهم أن يتقدمو للامتحان النهائي الشديد في بكين، و كان في تلك المدينة ردهة للامتحان العام تحتوي على عشرة آلاف حجرة انفرادية ، يقضي فيها المتسابقون ثلاثة أيام متفرقة في عزلة تامة، و معهم طعامهم و فراشهم، يكتبون مقالات أو رسائل في موضوعات تعلن لهم بعد دخولها ، و كانت هذه الغرف خالية من وسائل التدفئة و الراحة، رديئة الإضاءة و غير صحية لأن الروح لا الجسم –في رايهم– هي التي يجب ان تكون موضع الاهتمام، وكان من الموضوعات المألوفة في هذه الامتحانات ان ينشأ المتقدم قصيدة في : (صوت المجاذيف و التلال الخضراء و الماء) و أن يكتب مقالا عن فقرة من كتابات كنفوشيوس، و لم يكن في أي امتحان من هذه الامتحانات كلمة واحدة عن العلوم أو الاعمال التجارية و الصناعية ، لأنها لم تكن تهدف الى تبين علم الرجل ، بل كانت ترمي الى معرفة ماله من حكم صادق ، و خلق قويم ، و كان كبار موظفي الدولة يختارون من الناجحين في هذا الامتحان النهائي.

الأدب الصيني

الأدب الصيني فيهذا العصر ، سمي بالادب الكلاسيكي و لقد جمعت المؤلفات الهامة لهذا العصر في مجموعة تسمى "كتب كنفوشيوس" يعتقد انه كتبها أو اعدها للنشر بيده ، وهي :

أوّلا : الكتب الخمسة الكلاسيكسة أو كتب القانون الخمسة:

1: (كتاب التغيرات) و هو كتاب تنبؤ و تنجيم ،وفي ميدان علم ما وراء الطبيعة، الذي كان جد حريص على ان لا يلج بابه في فلسفة .

2: (كتاب الشعر) أو كتاب الأناشيد شرح فيه كنفوشيوس كنه الحياة البشرية ، و مبادئ الأخلاق الفاضلة

3: (كتاب المراسم) او سجل المراسم أو القواعد المتعلقة بالسلوك ، و تبحث في اداب اللياقة ، و تكوين الاخلاق و نضجها ، و استقرار النظام الاجتماعي.

4: (كتاب التاريخ) و هو مجموعة وثائق ، هي اهم و أرقى ما وجد كنفوشيوس في حكم الملوك الاولين من الحوادث و الاقاصيص التي تسمو بها الاخلاق ، و تشرف الطباع ، و ذلك حين كانت الصين امبراطورية موحدة الى حدما ، و حين كان زعماؤها كما يظن كنفوشيوس أبطالا يعملون في غير أنانية لتمدين الشعب و رفع مستواه .

ثانياً : الكتب الأربعة ، لم يكتبها كنفوشيوس، و لكنها سجلت في ايجاز ووضوح آراءه و أقواله ، جمعت من قبل اتباعه و مريديه و أولها (كتاب التعاليم) و يضم أقوال كنفوشيوس و محادثاته و حواره ، و (كتاب التعاليم الأعظم) او التعليم الكبير، و (عقيدة الوسط) ، و هو الكتاب الفلسفي الثالث من كتب الصين، و (كتاب منشيوس) و فيه تعاليم هذا الفيلسوف ، الذي وضع تعاليم كنفوشيوس بشكل شعبي خاص ، و هو خاتمة العهد القديم للفكر الصيني.

و من ادب هذا العصر : يعرف الامبراطور كيف يحكم اذا كان الشعراء أحرارا في قرض الشعر ، و الناس أحرارا في تمثيل المسرحيات ، و المؤرخون أحرارا في قول الحق، و الوزراء أحرارا في تقديم النصح، و الشيوخ أحرارا في تخطئة كل شيء .

الديانات في الصين

ظهرت عدّة ديانات في الصين أهمّها:

1 / الديانة الكنفوشيوسية:

عاش كنفوشيوس ما بين : 551 – 478 ق.م ، واسمه هذا هو بشكله اللاتيني أما شكله الصيني فهو كونغ فوتزو، أي كونغ الفيلسوف أو المعلم .

عيّن حاكما على مقاطعة لو ، ثم أصبح وزيرا ، فكان مثال العدل والنظام، ثم أصبح معلما متجولا متفرّغا للتعليم ، ولم يكن مؤسس ديانة، وإنما وضع قواعد شديدة للسلوك واللياقة.

من تعاليمه:

- إذا قام البيت على أساس سلين أمن العلم وسلم
- ما أشقى الرجل الذي يملأ بطنه بالطعام طوال اليوم، دون أن يجهد عقله في شيء...
- لست أبالي مطلقا إذا لم أشغل منصبا كبيرا ، وإنما الذي أعنى به أن أجعل نفسي خليقا بذلك المنصب الكبير...

ظهر من بعده فلاسفة منهم: (موتزو) الذي جعل البساطة والمحبة طريقا لسعادة الانسان. ونشر الكنفوشيوسية في الصين (منسيوس) ، أما (هسون تو) فقد قال : إن الطبيعة البشرية سيّئة ، وإنّ صلاح الانسان هو نتيجة التعلم المكتسب والتمرّن على الصلاح.

أصبحت الكنفوشيوسية الديانة الرسمية منذ أيام الامبراطور (ووتي) – 87/140 ق.م، وحتى عام 1912م ، أُعلنت الجمهورية.

الديانة الطاوية:

أسسها (لاوتزو) وكان معاصرا لكنفوشيوس ، ومارس السلوك المعروف باسم (طاو) والفضيلة المعروف باسم (تي) .ومبدأه يقوم على العزلة وعدم الاعتداد بالنفس ، والكنوز الثلاثة وهي : الرحمة والبساطة مع الاقتصاد والتواضع.

قامنت مناقشات حادّة بين الكنفوشيوسية والطاوية ، ولكن عادت الوحدة إلى الصين بعد فوضى الممالك في عصر سلالة (سوي) – 588 / 618 م ، وسلالة (تانغ) 618/ 906م وكانت سياسة ملوك هذه الأسرة التسامح بين الديانات كلها.